

دراسات لغوية في العامية العربية

- مقارنة أنثروبولوجيا -

الدكتور: بلشير حسن

كلية الأدب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

لا بد من الإشارة إلى ملاحظة هامة تخص العلاقة بين اللغة واللهجة، والتي لا يعدو أن يكون الاختلاف بينهما اختلافاً أسلوبياً. فاللغة في نظرنا تخضع لقوانين تضبطها وتحكم تراكيبيها، وهي تشتمل على عدة لهجات ولكل لهجة مميزات وخصائص جميعها تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات. وتفرع اللغة الواحدة إلى لهجات يرجعها الدكتور علي عبد الواحد وإي إلى انتشار اللغة في مناطق مختلفة واسعة، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس. فالصراع اللغوي الذي يقع نتيجة غزو أو هجرات وانعزال فئات الشعب الواحد في أماكن محصنة أسباب كافية في نشوء اللهجات، وقد شهد التاريخ ظهور عدة لهجات مستقلة للغة الواحدة.⁽¹⁾

1- اللغة نظام لغوي، وهي أساس كل نشاط ثقافي ووسيلة الاتصال والتفاهم، لها نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبي، تولدها طبيعة الاجتماع وما تقتضيه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل الأفكار، فهي ليست غاية مقصودة لذاتها وإنما وسيلة ضرورية للتفاهم والتعارف والتعلم وهي ظاهرة بلسيكلوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة وينظامها الصوتي تستطيع جماعة ما

أن تتفاهم وتتفاعل. وباللغة فقط صار الإنسان إنسان وتطورت الحضارة، وتقدم العمران وبلغ العقل الإنساني ذروته. ⁽²⁾

لا يمكن أن نتصور مجتمع بدون لغة فهي إذن ظاهرة اجتماعية خلقتها طبيعة الاجتماع في صور تلقائية، يقول إبراهيم السمرائي: "إن اللغة وثيقة الصلة بالإنسان وبيئته فهي تظهر المجتمع الإنساني على حقيقته، وليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه، وإنما هي عامل مهم للترابط بين جيل وجيل، وانتقال الثقافات عبر العصور لا يتأتى إلا بهذه الوسيلة العجيبة" ⁽³⁾

2 — أما اللهجة العامية هي اللسان الذي يستعمله عامة الناس مشافهة في حياتهم اليومية لقضاء حاجاتهم والتفاهم فيما بينهم وهي تتأثر بعوامل داخلية وخارجية ونتيجة لتحريف وخروج عن قوانين اللغة الفصحى وأنظمتها علما أنها انحدرت من أصل اللغة العربية واتخذت معظم ألفاظها وتعابيرها، فلا تحكمها ضوابط لأنها تلقائية متغيرة تبعا لتغير الأجيال والظروف المحيطة بهم وتتصل نشأتها بتاريخ اللغة الأصل ووجودها بجانب اللغة الأصل ظاهرة طبيعية في كل اللغات العالمية.

يقول إبراهيم أنيس: "اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع واشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تسير اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهما يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات." ⁽⁴⁾

فالصفات التي تميز اللهجة تنحصر في الأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها فالاختلاف الصوتي هو العامل الأساس الذي يفرق بيت لهجة وأخرى،

ومن هنا نستطيع القول أن العلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص.

إن اللهجات الموجودة اليوم على الساحة العربية إلى جانب لغة الكتابة ناتجة عن عوامل متعددة منحدر من لهجات قديمة بشبه الجزيرة العربية المتفرعة عن اللغة السامية المشتركة، ويمكننا القول أن اللغة العربية الفصحى يعود أصلها إلى واحدة من تلك اللهجات ولأسباب عدة لعبت في نموها وتطورها و ترقيتها إلى مستوى لغة أدبية .

هذه اللغة التي أصبحت فيما بعد ذات مستوى عالمي بفضل انتشار الإسلام الواسع، وهي تحظى بإشعاع خارق بصفتها لغة دينية أولاً ولغة حضارة ثانياً.

والواضح أن لغة العرب، لغة البدو التي اعتمدها اللغويون في تقعيد اللغة وضبطها وفق قواعد صارمة لم يكن لها أن تظفر بمكانة عالمية من غير أن تدخل عليها خلال القرون تحويرات اقتضتها الظروف التاريخية وما تقتضيه الحاجات الجديدة للأمة. لكن أغلبية العرب يابهن الاعتراف بأن لغتهم قد تطورت نتيجة عوامل وظروف، ذلك لأن العرب ومنذ العصر الجاهلي قد التجئوا إلى لغات أخرى أخذوا أو أمدتهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة بوافر من المصطلحات المتنوعة، فالمفردات الدينية مثلاً كان منبعها العبرية والآرامية والمفردات الحضارية كان مصدرها الفرس الذين ربطتهم صلة اللباس والطبخ والسلاح والورود والأثاث إلى الخ... والمصطلحات التجارية التي جاءتهم من الهند عن طريق التجارة والتجار وعن طريق الفهلوية أخذت المصطلحات العلمية. وقد تقطن مؤخراً علماء اللغة إلى ضبط المعرب والدخيل، وظهرت كتب في ذلك⁽⁵⁾

ليست هناك لغة أو لهجة إنسانية عاشت منعزلة، ولم تكن تنتمي إلى مجموعة لغوية تضم لهجات عدة تتشابه في مفرداتها ونحوها وصرفها وطريقة التعبير و صياغة الأفكار.

إن التجانس بين اللهجات العربية في المفردات والتراكيب يدل دلالة واضحة على أنها لهجات متقاربة انحدرت من لغة واحدة أصلية وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأنها فروع لأصل واحد، ولو حاولنا إيجاد وضع مشابه لكانت اللهجات العربية المنتشرة في الأقطار العربية على اختلافها أحسن شبيه لها، فلهجة المشرق تتشابه إلى حد كبير فيما بينها، كما أن لهجات المغرب العربي تتشابه هي الأخرى ولو اختلفت قليلا وجميع هذه اللهجات سواء المشرقية أو المغربية تشكل تقاربا يعود أصلا إلى العربية الفصحى، فاللغة الأم لا بد أن تترك آثارا واضحة في اللهجات المتفرعة عنها مهما ابتعدت، واتخذت لنفسها طريقا خاصا بها.

يعرف العالم العربي تنوعا ثريا في اللهجات الإقليمية، وتختلف عن بعضها في الاستخدام من الشرق إلى الغرب وهي لغة الشارع في كل المناطق ولكل الطبقات الاجتماعية، بالإضافة إلى الأمازيغية المنتشرة في المغرب العربي بمختلف لهجاتها ويعتبر التحدث باللهجة العامية شكلا مبسطا للعربية، وعند مقارنة هذه اللهجة مع اللغة المكتوبة نجدها تتقاسم الملامح مع اللهجات العربية الأخرى.

إن عامة الناس في الأقطار العربية اتخذت من التعبير العامي لغة موازية للفصحى نتيجة عوامل وظروف، فكان التمرن على هذا النوع من التعبير متجدرا راسخا يشب عليه الصغير ولا يشذ عنه الكبير، فيكون عاما شائعا بين كبيرهم وصغيرهم، حتى أصبح التعبير العامي ملكة راسخة فيهم تجري على ألسنتهم.

إن اختلاف الألسنة بين الناس من سنن الحياة وطبيعية الشعوب البشرية وينبغي أن نعرف أن اللغة العربية عبر عصورها والمراحل التي مرت بها اختلفت فيها ألسنة العرب في نطق لهجات تبعا لاختلاف القبائل وظروفها الاجتماعية وأن

هذا الاختلاف قد شمل أصوات الكلمات وبنيتها والجمل والإعراب ، كما شمل أيضا معاني الكلمات فهما ودلالة".⁽⁶⁾

وكان لدواعي الصلة بين العرب دينيا وتجاريا واجتماعيا أثر في ظهور لغة عامة واحدة يفهمها الجميع خالية من قواعد النحو والصرف والتساهل في إختيار المفردات والخروج عن الأساليب ، وقد تكونت وشاعت بفضل العرف الذي فرضته علاقات النفع الاجتماعية والانتقال ، ولم تأت كما يرى بعض نتيجة اضطلاح ومواضعة .

تذهب الدراسات اللغوية الحديثة وخاصة الغربية منها إلى إن اللهجة العامية تنشأ عن تحويل في اللغة الأصلية يؤدي إلى قيام أسلوب جديد في الخطاب اللغوي ، يصلح للاستعمال في ظروف الحياة اليومية لكنه لا يرقى إلى مرتبة اللغة القومية ، وبذلك لا يعدو الاختلاف بين اللغة واللهجة أن يكون إختلافا أسلوبيا ، ويضرب العالم اللساني الفرنسي أندريه مارتيني مثلا على ذلك باللهجة المصرية وعلاقتها بالفصحى الحديثة وبلغة القرآن الكريم وكيف أن الفروق بين هذه المستويات فروق أسلوبية في جوهرها أنها تشكل لغة واحدة.⁽⁷⁾

تشكل العامية اليوم خليطا من كلمات فصيحة محرفة ، ومفردات أعجمية وأصول أخرى لا تعرف طبيعتها المعجمية وتشارك جميع هذه العاميات فافتقارها إلى قواعد ثابتة على جميع المستويات الصوتية والتركيبية والدلالة.

إن اللغة ظاهرة إجتماعية كما يراها علم اللغة الحديث ((تنشأ بنشأة الإجتماع البشري لأنها من صنع العقل الجماعي ، وتتميز بصفة الإلزام والقهر ، بمعنى أنها تفرض نفسها على الأفراد فلا يملكون إلا طاعتها راضين أو **كارهين** ، وبهذه الصفة الإلزام والقهر تتأكد موضوعية الظواهر الإجتماعية))⁽⁸⁾.

كما نجد رائد المدرسة الإجتماعية في الدراسات اللغوية الحديثة فرديناند دي سو سير يؤكد هذه النظرة الإجتماعية ويعتبرها نماذج سلوكية

حقيقية لأعضاء المجتمع، ومن ثم يرى أن علم اللغة عنصرًا أو جزءًا من العلم الذي يقوم بدراسة الصلات الاجتماعية في المجتمع البشري.

واللغة في نظره لا تتساوى مطلقًا مع الكلام الإنساني ((إنها نتاج إجتماعي للمقدرة على الكلام الإنساني، وفي الوقت نفسه تشابك من عادات ضرورية مؤكدة أو إتفاقيات طبيعية يقوم بها المجتمع لتسهيل أداء هذه المقدرة من خلال الأفراد، أما الكلام الإنساني فليس شكلًا واحدًا محددًا أو متشابهًا، إنه يتصل بمجالات متنوعة فيزيائية ونفسية وفسولوجية، كما يتصل أيضًا بمجالات فردية اجتماعية، وهو لا ينتظم في أنواع من الصلات الإنسانية" (9)

اللغة ظاهرة اجتماعية بسلوكولوجية كما تعرف عند الغالبية من علماء اللسان، قبل أن تكون كلمات أصواتًا وصرفًا ونحوًا، فهي في المنظور العربي أداة مركبة من أصوات فكلمات فتراكيب، بينما هي في الواقع الفكر ذاته، ولا كيان للغة بمعزل عن المجتمع.

وهي تتطور بتطور الإنسان ذاته، ويمكن للعامية أن تصبح في وقت ما لغة رسمية لشعب ما. عندما يتجرد من قيود التبعية والتقليد ويستطيع أن يساير الحضارة بلسانها الخاص، وفي هذه الحال قد يجد المجتمع نفسه مجبورًا على توليد مفردات ومصطلحات عن طريق الاقتباس والترجمة، وهذا ما يزيد العامية غنى وتطورًا.

و هناك آراء لسانية تذهب بالقول أن كل لغة تتحول في غضون الزمن إلى لغات أخرى عبر نظام صارم من التفرعات كما حدث في اللغة اللاتينية. بحيث انحدرت لغات تعرف اليوم باللغات الحية وهي الفرنسية، والإيطالية والإسبانية من اللغة اللاتينية. فعلماء اللغة المحدثين يرون أنه لا وجود للغة جيدة بالمقارنة مع

العاميات، فالفصحى ليست لغة رديئة. أن كان نحو وصرف العامية يختلفان عن صرف ونحوها.

قد يتوهم البعض أن العامية خطأ وأنها لغة هجينة، قد تكون بالنسبة للفصحى كذلك لكن ليس بالنسبة إلى ما يقوله الناس، والملاحظ أن العرب في جميع أقطارهم يتكلمون اليوم لهجات عربية إقليمية في حياتهم اليومية ويعتبرون في حياتهم الفكرية العربية الفصيحة لغتهم الرسمية.

ونشوء العاميات في جميع اللغات مرده إلى مبادئ طبيعية، فإن تركت اللغة للناس يتكلمون بها عن سجيتهم فإنها على مر الزمن تتعرض إلى الضعف والتفكك من جراء الميل إلى استعمال السهل من المفردات ومجانبتهم لكل صعب. (10)

فالعامية لا تتخذ من اللغة أداة للتعبير عن الفكر بقدر ما هي عندهم تعبير عن الشعور، وتصريف الشؤون والتعامل والتحليل على كسب العيش والاسترزاق، وفي مثل هذه الظروف يتجرد الإنسان من قيود اللغة وما تحمله من أنظمة معقدة، ويتكلم على هواه بطريقة بسيطة ترتاح لنفسيته لها.

بالرغم على أن العامية ليست لغة قائمة بذاتها لما تتميز به من انحرافات بسيطة عن النهج اللغوي الفصيح غير أن هناك من يعتبر العامية لغة قائمة بذاتها حية نامية، وليست انحطاطاً لغوياً كما يعتقد بعض، بل تطورا ونموا تبعاً لتطور الحياة الاجتماعية والفكرية وهو ما يؤكد الدكتور أنيس فريحة: "العامية لغة قائمة بذاتها، حية متطورة نامية تتميز بجميع الصفات التي تجعل منها أداة طيعة للفهم والإفهام، وللتعبير عن دواخل النفس" (11)

غير أن ما ذهب إليه الدكتور أنيس فريحة أثار موجه من الغضب عند الجموع والمتعصبين للفصحى وانبرى لذلك خطباء يدافعون عن الفصحى بمهاجمة العامية معتبرين إياها لهجة فاسدة، تتجسد فيها الركاقة والرطانة

والعجمة وتمثل الانحطاط اللغوي والموت في اللغة لا الحياة. ولو أن هذا الحكم في حق اللهجة العامية كان قاسيا جدا من قبل هؤلاء غير أنه يبقى مجرد حكم وأراء شخصية لا تقبل الإجماع، ذلك أن اللهجة العامية مهما قيل عنها من انتقادات هدامة وأحكام قاسية فهي باقية بقاء الإنسان خالدة خلود الزمن.

تفرع اللغة إلى لهجات

فلا توجد لغة في العالم لاتعرف التشعب إلى لهجات محلية أو إقليمية ومع ذلك تستمر اللغة الأصلية في البقاء وأداء وظيفتها التخاطبية والتعبيرية، وكثيرا ما تتراجع هذه اللهجات المحلية لمصلحة اللغة الأصلية كما حدث في لهجة "الباتو" بفرنسا التي تراجعت أمام اللغة الفرنسية. بحيث أن الوضع اللغوي القائم في فرنسا لانظير له في بقية المجتمعات الأخرى فاللغة القومية تتمتع فيه باحترام كبير مما ساعدها على الانتشار، وحتى سكان الأرياف الذين يعيشون في قرى متباعدة نسبيا يتكلمون اللغة القومية بسهولة ويسر أكبر من استعمالهم اللهجة الأصلية في تعبيراتهم التي نجدها تتفاوت من منطقة إلى أخرى ومعلوم أن المرء يتعلم اللغة التي يستعملها يوميا ، فيشتد إتقان الناس للغة القومية مع مرور الوقت، وفي المقابل تتضاءل الفرص أمام الناطقين باللهجة الأصلية لمقارنة أنماطهم الأصلية فيما بينها مما قد يؤدي بالفوارق إلى النمو والإتساع ليصبح التفاهم فيما بينهم معقدا ، ولو كان الأمر غير ذلك لا اعتاد لناس على هذه الفروق وعلموا على تسويتها.¹²

قد نصادف حالة لا تتفق فيها اللغة الرسمية مع اللهجة المستعملة ، فاستعمال اللغة الرسمية مقصور على مجالات معينة لا يسمح فيها لغيرها من الأنماط اللغوية المحلية، وغالبا ما تكون هذه اللغة أدبية رفيعة أو مقدسة ولا تستجيب لحاجات المجتمع المختلفة وهذا هو حال اللغة العربية في البلدان العربية،

فالشروط في هذه الحالة تكون مهيأة لظهور لهجة تستجيب لحاجات التعبير اليومية .

وهذا يجبرنا إلى الاعتقاد أن اللغة ذات الاستعمال المحدود تساعد بشكل أو آخر على ظهور أنماط من التعبيرات المحلية القريبة منها ، فإن الناطقين بهذا النوع هم أشد وعيا لوحدة الكل ، لا يعيرون اهتماما كبيرا للاختلافات الدلالية والفوارق الصوتية ، وينظرون على أنهما مجرد أسلوبين للغة واحدة.

تختلف لهجة الفرد من منطقة إلى أخرى ، أو مجموعات أخرى إلى مجموعته ، وأول ما يظهر من هذه الفروق هو على مستوى النطق ، وخاصة في اختلاف بعض الأصوات ، ثم نسجل اختلافات في بعض المفردات التي تتصل معانيها بالأمور المحلية ، ثم كلمات مقترضة من لغات أخرى .

هذا التفاوت في اللهجات المستعملة في البلدان العربية لا يمكنه أن ينطوي أو يضمحل ، على الرغم من الجهود التي تبذل في المؤسسات التعليمية ، بل إن الفروق تزداد ، ولا نجد لغة في العالم منتشرة في مناطق واسعة من دون لهجات محلية متباينة ومختلفة ، والتباين في اللغة أمر طبيعي فلا نجد أية أمة منتشرة في منطقة واسعة تستعمل اللهجة نفسها في جميع المناطق ، وحتى اللغة الرسمية لا تستعمل في جميع المناسبات والمواقف والمواضع .

إن وجود التباين في اللهجات من حيث الموقع الجغرافي أو الطبقة الاجتماعية أو بين الأفراد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا مظهر يثير التساؤل عن مدى ترابط اللهجات وعن مدى التفاهم بين المجموعات التي تتحدث مختلفة .

يرى علماء اللغة أن " اعتبار التشابه البنيوي للهجات معيارا لقياس الترابط والقربا البنيوية وبعدها " (12)

قد نلمس ضعف في الاستعمال اللغوي بين عامة المتكلمين في البلاد العربية وربما كان من مظاهر هذا الضعف قلة الإنتاج الفكري أو الثقافى الرصين الأمر الذي نلمس آثاره واضحة إلى جانب ذلك تداخل العامية مع الفصحى والعربية مع الأجنبية، وهذا الخلط اللغوي الفج، والكلام المهجن الذي يظهر بصورة بارزة على ألسنة الأساتذة وطلبتهم وفي ميادين كثيرة من حياتنا .

كما أن عدم إتقان أصول اللغة وقواعدها أو بالأحرى عدم إدراك القواعد الأساسية لهذه الأصول، بالإضافة إلى أسباب أخرى مختلفة المحاور تتعلق بالحياة المادية القائمة والتغيرات الحضارية التي يشهدها المجتمع العربي ، لكن نجد هناك تباين في وجود هذه الظاهرة، وتختلف نسبة انتشارها من قطر إلى آخر تبعا للظروف الاجتماعية والإقتصادية والحضارية التي تخضع لها البلد ويتفاعل معها المجتمع .

وقد يعتقد الكثير أن العامية هي بمنزلة اللغة الأم للفرد على اعتبار أنها تشكل لديه النموذج اللغوي الأول، وتترسخ ملكتها فيه فتصبح منه بمنزلة السليقة⁽¹³⁾.

بين اللغة واللهجة

إن اللهجات العامية العربية المحلية منها أو الإقليمية المنتشرة حاليا في الأقطار العربية بين شعوبها لا يمكن اعتبار أي منها لغة أصلية على المستوى القومي لأنها لاحقة أو منبثقة متفرعة عنها. كما لا يمكن للإنسان أن يرتبط بقوميته أو ثرات أمته بأي منها. وإنما يتحقق ذلك بالرجوع إلى اللغة الأصل الراسخة التي تمثل الشجرة الأولى بجذورها وأصولها الثابتة وهي ما تعرف بالنمط العالي أو المرتفع للغة وليست العامية المحلية التي لاتمثل إلا النمط الواطئ أو الضعيف لها.

وتبقى لغة قاصرة بالرغم من اشتراكها في ظواهر عديدة مع الفصحى ولا تقي مفرداتها مهما كثرت وتنوعت وتفرعت ولو افترضنا أن العامية وافية بحاجات التخاطب الاجتماعي العادي فإن هذا الوفاء لا يتعدى حدودا جغرافية ضيقة. قد تكون هي الحدود البيئية التي يعيش فيها الفرد وبإمكانها أن تصل إلى حدود الإقليم الواحد، وإن تجاوزت حدود بيئتها إلى بيئات أخرى فسيكون استعمالها محدودا في مجال التخاطب المكتوب، فلا يمكن أن تقبل إلا في حالات نادرة، وفي البيئات المختلفة فكريا وثقافيا في الغالب. وإن قبلت فإن استخدامها لا يتجاوز مواقف خاصة ومحددة، وقد تقصر وتضيق في مجال التعبير عن القضايا الثقافية أو الفكرية العلمية والفلسفية، الأمر الذي يحوج المتحدث اللجوء إلى لغة أرقى.

تطور العامية :

إن العامية خاضعة للتغيرات السريعة التي لا تحكمها قواعد ولا قيود في كثير من الأحيان، فإن التعبير بالعامية لا يمكن أن يبقى ثابتا لوقت طويل، سواء من حيث ألفاظها ومعانيها أو من حيث صيغها و تراكيبها وأساليبها. علاوة على ما تقدم فإن العامية لا ترضي طموح أمة متحضرة تحرص على تنمية علمية لدى ناشئها، لغة ثابتة الأصول راسخة القواعد وذات ذخيرة لفظية وافرة، هناك من يرى بل ينبغي التوجه نحو الأصل وتأكيد بدل من تأصيل الفروع والوقوف عندها والتشبث بها. ⁽¹⁴⁾

ويكفي أن نشير إلى أنه عادة ما يكون تطور العاميات نتيجة اختلاط الأجناس في حين أن السكان الأصليين أو ما يعرف بالبدو لهم نزعات اشد محافظة، فالنظام الصوتي في العامية أكثر ثراء من نظام العربية الفصحى وسلم الحركات هو الآخر أكثر تنوعا، غير أن سرعة تطور لهجة من اللهجات تؤدي إلى نزاع التسوية بين الحركات إلى الاضمحلال، فالأمر لم يقتصر على أن

إنهاك الأواخر يحدث سقوط الحركات بل أن الإعراب بالموضع يلغي دور حركات الإعراب بالإضافة إلى ذلك فإن الحركات القصيرة الداخلية تضعف بدورها وتضمحل، حتى في المقطع المنبر في اللهجات المتطورة كلهجة المغرب الأقصى التي لا تعوضها إلا عناصر صوتية خفيفة، تكون أوساط مقاطع وتتلون أحيانا باعتبار الحوار الحريفي.

وإن كان الرصيد اللغوي الأساسي موجود في اللغة العربية الفصحى، غير أن العاميات تستعمل مجموعة من المفردات الحية آتية من أصول عربية أهملت أو متكونة تكونا عفويا أو دخيلة من لغات أجنبية لا تزال حية⁽¹⁵⁾.

إن ما يتعلمه الناشئ من مقررات داخل نطاق المدرسة فرضا كان أو تطوعا واختيارا كان باللغة الفصحى، بينما لغة التخاطب التي يسمعها ويمارسها يوميا في الشارع والبيت هي العامية، وبالرغم من أن في العامية عناصر لفظية ومعنوية ذات أصول سليمة فصيحة، لكن هناك ما هو محرف وبعيد تماما عن الأصل السليم، فالعامية إذن تحوي عناصر مهجنة وأخرى دخيلة تسربت من لغات أخرى بطرق عشوائية أو ارتجالية، فهي غير معترف بها من قبل المجامع أو المؤسسات اللغوية القومية وغير صالحة في الاستعمالات المدونة رسميا.

واستمرار التنازع بين العناصر الأصلية السليمة والهجينة على احتلال المواقع في مختلف النشاطات اللغوية قد لاينته، ربما قد تزيج هذه العناصر السليمة من الذاكرة، وتغلب على الألسن لكثرة تداولها في الحياة العادية، وبما أن هذه العناصر غالبا ما تكون غير صالحة في المجال الرسمية فإن الناشئ المستخدم لهذه العناصر يجد نفسه في موقف مفارق إما أن يكون تعبيره شادا مشوها غير مقبول أو يمتنع عن الاستعمال المهجن ويقتصر على الحد الأدنى منه.

فقلة الممارسة في استخدام اللغة السليمة قد يؤدي بطبيعة الحال إلى فقدان الطلاقة اللغوية وضعف القدرة على التعبير والإنتاج.

الاختلافات اللهجية :

إن الدراسة العميقة لحالة اللهجات اليوم ودراسات ضرورية في الجغرافية اللغوية توفر ولا شك معلومات قيمة وتمكننا انطلاقاً من الحاضر الرجوع إلى الماضي البعيد ، نلاحظ اليوم أن العرب لا يعتنون بلغتهم اليومية ، فإن الاهتمام بدراسة اللهجات لم يبدأ إلا في القرن الماضي. وهذه الدراسة لم تكن لتشمل جميع المناطق بل هناك مناطق شاسعة لا تزال تنتظر الدراسة والكشف.

فاللغة العربية يتكلمها اليوم ما يفوق مائة وخمسون مليون نسمة من آسيا الأمامية وإفريقيا الشمالية ومن الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي وفق قوانين وقواعد لغوية صارمة ، أما اللهجات فهي تتميز تميزاً واضحاً وتتفتت إلى ما لا يحصى من اللهجات ، فاللهجة كما يصطلح عليها هي أصغر وحدة لغوية ، ويتدقيق الأشياء لهجة بكل مجموعة سكانية .

وقد نجد القبائل في الجهات العربية أو المعربة محافظة ومند عهد طويل على لهجاتها التي عرفت نوعاً من التطور الطبيعي يضاف إليه تأثير العربية الفصحى ، حتى أنه يصعب على المرء أن نستخلص من وضعها الحالي معلومات سريعة ودقيقة عن حالتها القديمة.

ولذا فإن اللهجات الحالية من حيث صوتياتها ومفرداتها بل وكذلك من حيث نحوها وصرفها تتصف بفوارق على درجة من الوضوح ، فسكان المغرب العربي مثلاً يحتاجون إلى شهور عديدة بل إلى سنين من التعود والتمرس حتى يتمكنوا من الحصول على ملكة استعمال لهجة من اللهجات الدمشقية .⁽¹⁶⁾

اللهجة المعاصرة:

ويتضح بصورة جلية بأن فرضية اللهجات العربية المعاصرة هي امتداد لتلك اللهجات المولدة ، بسبب انتشار العرب وتقلهم مع الإسلام في أمصار الدولة الإسلامية من المشرق إلى المغرب ، لغة المولدين كانت مشوبة باللحن في اللغة

العربية، وأصبحت لها لهجتان محكيتان لهجة العرب الأقحاح وعرفت أنداك بلغة الخاصة، ولهجة المولدين اللاحنة والتي عرفت باسم لغة العامة، ومن هنا جاء الاصطلاح (اللغة العامية) كما أشار على ذلك صاحب البيان والتبيين إلى أن "العامية هي لغة المولدين والبلدين" ⁽¹⁷⁾ ووضعت مؤلفات بعنوان لحن العامة، فقد انتقل إلى اللغة العربية الكثير من الآثار الأجنبية سواء في العصور السالفة أو في العصر الحاضر وتأثرت العربية بغيرها من اللغات الأوروبية ولا سيما باللهجات العامية بسبب انتشار الثقافة الغربية في بلادنا العربية، وبسبب تبادل البعثات العلمية، وانتقل إلى العربية الكثير من المفردات الغربية في مجال العلوم والفنون والاقتصاد وغيرها، فازدادت بذلك ثروة اللغة العربية وقدرتها على الأداء والتعبير والتفاهم.

ومهما يكن من أمر حول أصل اللهجات العربية المعاصرة فهذا قد لا يتطلب دلائل وبراهين، لكن لابد من القول بأن إحتكاك العنصر العربي مع غيره من الأجانب في الوطن العربي خلال القرون القليلة الماضية عن طريق الإستعمار أو عن طريق التجارة والمعاملات الإقتصادية والسياسية والدراسة وما إلى ذلك، قد يضاف إلى الفروقات الأخرى، عناصر غربية متعددة الأصول، وذلك بحسب طبيعة ونوع الإحتكاك وبتفحص هذه اللهجات ومقارنتها مع غيرها، تتضح نوعية العناصر الغربية الدخيلة. فالفوارق اللهجية العربية المعاصرة من حيث النوع تتشابه مع الفروقات المتوافرة بين لهجات اللغات الأخرى في العالم، وفي الأصوات ونظمها وفي الصرف والمفردات، إلا أن العناصر المشتركة بين كل اللهجات العربية تفوق عناصر التباين والاختلاف من حيث العدد والنوع غير أن اللغة العربية تتميز عن باقي لغات العالم فقد أدت الاختلافات في لهجات اللغات الأخرى في العصور السابقة إلى ظهور لغات انفصلت واستقلت عن تلك اللهجات، بينما اللهجات العربية حافظت على ارتباط وتماسك بعضها ببعض، وذلك بسبب إرتباطها جميعا بالفصحى و القرآن الكريم.

وما تجدر الإشارة إليه فإن الوطن العربي ومنذ خمسة عشر قرناً من الزمن وهو متماسك مترابط بالوحدة اللغوية وتكاملها ما لا نجده في أية لغة أخرى من العالم ، وأما وجود اللهجات بجانب الفصحى فليس هذا بمظهر تفكك أو تشتت لغوي في الوطن العربي، لكنه أمر طبيعي في كل لغات العالم ولو افترضنا التخلص من جميع اللهجات بطريقة أو بأخرى وأصبح كل فرد يستعمل الفصحى في كل مجالات الحياة، (وهذا أمر يستحيل تحقيقه) لظهرت لهجات محلية جديدة، ذلك أن المجتمع لا يمكنه أن يفاضل بين مستويات الاستعمال اللغوي، ولا بد أن تظهر فيه أنماط لغوية مختلفة ، وقد لا يجمع الأمة لغوياً إلا اللهجة الفصحى⁽¹⁸⁾ أما بقية اللهجات الأخرى التي تفرعت عن اللهجة الأصلية فهي كثيرة يختلف بعضها عن بعض في الكثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والألفاظ ، فقد اقتصت كل جماعة أو قبيلة متحدة ومتلازمة في ظروفها الطبيعية والاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات(19) وسبب تباين اللهجات العربية الحديثة يعود إلى القبائل التي انحدرت من لهجات عربية متباينة ، ولم تكن هذه القبائل النازحة إلى أماكن لهجية معينة ومعها لهجاتها المختلفة وأقامت بها، وكل منها يحتفظ بخصائص وعوائد في لهجات التخاطب التي سبق وان تأثرت بها. فكان لا بد أن تحذو حذو أهل البلاد الجديدة في لهجات كلامهم وتخاطبهم .

فالعامية المحلية العربية تتميز في القطر العربي فيما بينها في صفات صوتية بالدرجة الأولى يمكن تحديدها فيما يلي:

الاختلاف في مخارج بعض الأصوات اللغوية ، وبخاصة منها الهمزة والقاف، التباين في التناغم الصوتي للكلام وكذا الاختلاف في نظام التفاعل بين الأصوات المجاورة حين يتأثر بعضها ببعض .

وليس بالضرورة أن تجتمع كل الفروق ممثلة في لهجة لغة من اللغات، بل قد يشمل جانب منها فقط، كما أن اللهجات يمكنها أن تتقارب أو تتباعد على قدر اشتغالها أو عدمها على الصفات السابقة الذكر.

ينبغي الاهتمام بدراسة اللهجات العربية الحديثة، والعمل على إصلاحها وترقيتها قصد بلوغ مستوى رفيع من النتاج الأدبي الشعبي ومقاربتها والارتقاء بها مع التراث العربي الفصيح، ذلك أن اللهجة العامية ما هي في حقيقة الأمر إلا عربية فصيحة محرفة دخلتها طائفة من الألفاظ الأعجمية.

فالهدف الذي ينبغي العمل من أجل تحقيقه، الوصول بالعامية إلى مستوى يقارب اللغة الوطنية المستعملة في المناسبات الرسمية، حيث تستعمل لغة رفيعة ذات النمط العالي من الأساليب الراقية. ولما لا التفكير بجدية في وضع قوانين وضوابط للعامية العربية وتوحيدها على المستوى الإقليمي، هو المتوخى من هذا كله، تحقيق لهجة عامية واسعة تشبه العربية الفصحى، وتقرب إلى حد بعيد من اللغة الأكاديمية الراقية التي تحفل بها مجالات الأدب والشعر والموسوعات العلمية.⁽²⁰⁾

إن العامية العربية الحديثة المقتصرة على مجموعة معينة من المناطق المعزولة ولم تحظ بالانتشار الواسع، قد تعدت حدودها الجغرافية وصارت معروفة لدى الكثير من الشعوب والأجناس، وأكثر من ذلك فقد ألف المستشرقون كثيرا من الكتب عنها وعن قواعدها، وأصبحت العامية المصرية معروفة وكذلك لهجات بلاد المغرب كالعامة التونسية والجزائرية ومراكش وطرابلس، كما عرف عن اللهجات العربية الأخرى كالسورية وبلاد العرب الجنوبية والداخلية، وكذا الأقطار الشرقية أكثر مما كان معروفا من قبل ويبقى مجال البحث مفتوحا للمزيد من التقيب والترتيب ووضع اللهجات العربية في مستواها الذي تستحقه فالفروق في اللهجات العامية عظيمة أخذت كل لهجة من هذه اللهجات

تسلك خلال تطورها منهاجا يختلف منهج اللهجات المجاورة لها فالهجة الشام تختلف عن لهجة مصر بحيث نستطيع أن نتعرف على المصري ولو كان متزيئا بزي أهل الشام والعكس صحيح والأمر نفسه في بقية الأقطار العربية الأخرى من المشرق إلى المغرب .

هوامش

1. اللغة والمجتمع د/ علي عبدالواحد وإيفي ص 123 القاهرة
2. نحو عربية ميسرة د/ أنيس فريحة ص38 بيروت
3. فقه اللغة المقارن د/إبراهيم السمراي ص169 بيروت
4. في اللهجات العربية د/ إبراهيم أنيس ص 16
5. تاريخ اللغة والآداب العربية - شارل بلا ص58
6. المستوى اللغوي للفصحى واللهجات وللنثر والشعر د/ محمد عيد 39. 40
7. المبادئ العامة في اللسانيات دي سوسير ص28
8. علم اللغة د/ محمود جاد العرب ص 85
9. المرجع نفسه ص86
10. تحريفات العامية للفصحى - في القواعد والبنيات والحروف والحركات د/ شوقي ضيف ص17. 13
11. نحو عربية ميسرة د/ أنيس فريحة ص 112
12. مبادئ الدراسات اللسانية العامة ادري مارتيني - ت أحمد حموت ص 125
13. مجلة المستقبل العدد ص92
14. مجلة الحصيلة اللغوية العدد212 التاريخ 1996 ص 168
15. المرجع نفسه ص169
16. تاريخ اللغة والآداب العربية ص 70
17. المرجع نفسه ص68
18. البيان والتبيين للجاحظ ج1 ص 193
- 19- الحصيلة اللغوية (مجلة) العدد 212 / 08/ 1996 ص169
20. فقه اللغة د/ علي عبد الواحد وإيفي ص 104

